"بيت الشعر" يفتتح أسبوع الشاعر عبد اللطيف عقل في رام الله وجنين

رام الله ـ افتتح بيت الشعر الفلسطيني في رام الله، اول من امس، أسبوع عبد اللطيف عقل للثقافة الفلسطينية والذي ينظم في جنين، ونابلس، وبيرزيت، ورام الله، وغزة.

وقد افتتح رئيس بيت الشعر الشاعر مراد السوداني الاحتفال بكلمة جاء فيها:

السراج الدامع.. ولكم أن تصفوه بـِ «ناي الأرض المحتلة».. بلحية ثلجية كثّة ورأس أشيب شاكل لبدة الأسد.. مربوع القامة.. بنظارة تلازم باصرتيه.. هذا هو الشاعر والمفكر د. عبد اللطيف عقل.. المبدع اليتيم.. والغريب تماماً والمتمرّد عن عمق.. والحزين بصدق.. والفعّال باقتدار.. كتاباته كانت إشارات لحالة وعي متقدمة وعابرة للحظة ومتجاوزة لِ «الآن».. استطاع عقل وبجدارة أن يفكك الواقع ويغوص في تفاصيل اليومي وهوامش البلاد التي انحاز لها واجترح وقدّ لها من روحه وعرقه الكثير..

وبدأ الاحتفال بكلمة اللجنة التحضيرية لأسبوع عبد اللطيف عقل للثقافة الفلسطينية والتي ألقاها الشاعر د. عبد الرحيم الشيخ، ومنها:

«اليتامى وحدهم، كانوا، وما زالوا. واليتمُ على حاله.. واللؤمُ على حاله، واللئامُ على حالهم. لكن عبد اللطيف عقل عاشَ يتيماً، ومات يتيماً، ونبعثُ اليومَ ذكرَهُ ولا يزالُ يتيماً. فطوبى لأيتام الثقافة، وطوبى لثقافة اليتم إذ تجنّب أبناءها خطيئة القتل ـ الضروري ـ المغفرة لآبائهم إن توثّنوا. وُلدَ عبد اللطيف عقل يتيماً، ومات يتيماً، كما الثقافةُ التي لم تذكره قبل اليوم: يتيمةٌ هي أيضاً، لكنّها لا تَبرِّ بأيتامها».

وألقى الشاعر د. المتوكل طه كلمة الثقافة الفلسطينية، أما صديق الراحل عبد اللطيف عقل، د. سمير شحادة، فقد قدّم شهادة شخصية امتازت بالحميمية والتفاصيل الحارة. وتوقف شحادة أمام محطات مهمة في تجربة عقل الشعرية والمسرحية.

أما كلمة النقد المسرحي فقد ألقاها الروائي الناقد وليد أبو بكر، كما ألقى الروائي يحيى يخلف كلمة المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير والتي تطرق فيها لسيرة عبد اللطيف عقل ودوره الريادي في ثقافة الأرض المحتلة.. وجرأته واستثنائيته في الكتابة، وشموليته الشاهدة.

وقد تخلّلت فقرات الحفل فقرة فنية قدّمتها فرقة الكمنجاتي في عزف مؤثر لأطفال وفتيات من المخيمات تعبّر عن إصرار شعبنا على حقّه في الحياة.

فيما ألقت أم الطيب ـ أرملة الراحل ـ كلمة مؤثرة استذكرت فيها الراحل الكبير ومما جاء فيها:

ثلاثة عشر عاماً وما تغير لون السماء..
ثلاثة عشر عاماً وما تغيرت رائحة التراب..
وبقي ما بينهما تائهاً كما كان قبل ثلاثة عشر عاماً
فلا تزال الأحلام تداعب وجه كل طفل
والآمال تزرع قرب كل زيتونة شاهد
ولا تزال فلسطين سبباً للحياة والموت
ولا تزال حباً لا يعرف الرحمة.
لا يزال الشعراء يتغنون بضفائرها وعينيها وخصرها

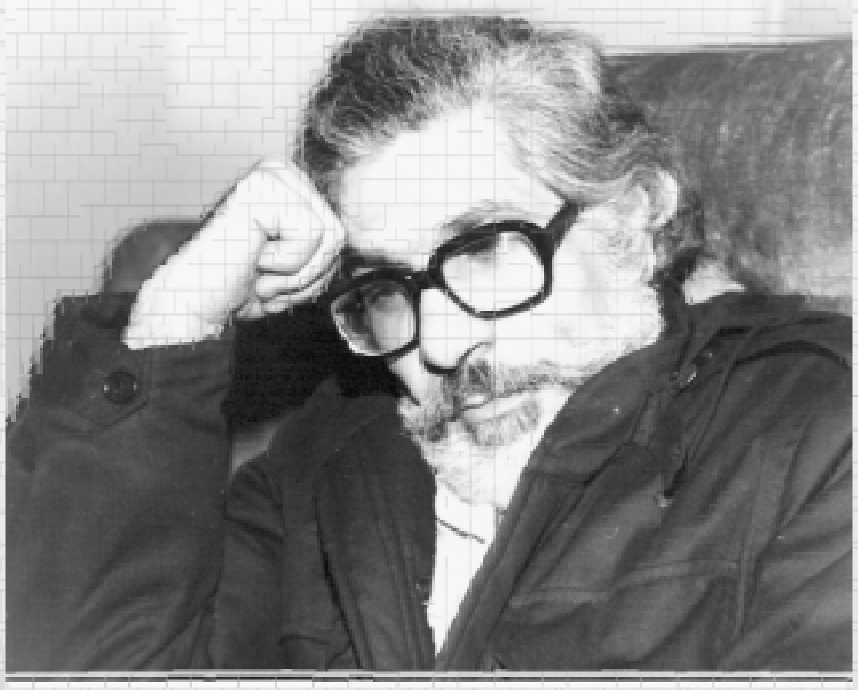

الراحل عبد اللطيف عقل.

لا يزال الشهداء يتسابقون لنيل شرف اللقاء
والأطفال ما زالوا يطاردون الجراد
ثلاثة عشر عاماً وما تغير شكل الاحتلال
فوجهه القاتم وفأسه الصدء لا يزالان يخيمان فوق سماءنا القدسية
والعرب ما زالوا ينظرون من الشرفات الذهبية يصفقون إن كبونا، ويعبسون إن استبسلنا وما زلنا لا نبالي...

تمنيت لو أزف لك خبر الانتصار والعودة ولكن.. لم توحّد الصفوف بعد، ولم تحرّم دماء شهدائنا بعد، وما زالت البلاد تطلب أهلها.

وقد اختتم الاحتفال بقصيدة للراحل عقل ألقاها الشاعر محمد عياد.

عبد اللطيف عقل: ما أكثر الشعراء!

وليد أبو بكر

قبل منتصف الستينيات، كان الصوت يجيء من هنا، تزكّيه شهادة من فدوى طوقان. كان الصوت أصيلا. هكذا تلمسناه عن بعد، فحاولنا أن نتعرف إليه، وأن نقدمه من خلال شعره. ثم كان الاحتلال، وتدفق الصوت، وصارت له مكانته. لكنّ صاحبه، الذي رأى أن الشعراء، مثل الخلان، ما أكثرهم، وجد لنفسه مكانا آخر، أو مكانة أخرى، قلّ العابرون فيها على هذه الأرض، وفي شتاتها أيضا، بشكل لا يزال يثير السؤال حول غياب الكتابة المسرحية التي تتجاوز مرحلة المحاولة، فلسطينيا، حتى الآن، رغم تميز الساحة الفلسطينية في ألوان الإبداع الأخرى.

أقدم عبد اللطيف عقل على تجربة المسرح وهو يشعر بأنها أكثر قدرة على استيعاب أفكاره التي عبّر عنها بالشعر، لأن الأصوات في المسرح تتعدّد، والوسيلة تصبح أكثر طاقة على الأداء. ومنذ «المفتاح»، استطاع الشاعر أن يخطّ لنفسه طريقا في الكتابة المسرحية، تواصل حتى «الحجر في مطرحه قنطار»، مرورا بأعمال كان لها بريقها على الخشبة، حين قدّم بعضَها مخرجون كبار، مثل التونسي المنصف السويسي والعراقي قاسم محمد، وكان لأحد العروض صدى لا يزال مستمرا، بحيث يعتزّ زهير النوباني ـ ممثلا ومنتجا ـ بأن مسرحية «البلاد طلبت أهلها» ربما كانت أكثر تجاربه المسرحية أهمية.

مسرحيا، لم يخرج الشاعر في موقفه الوطنيّ عن مساره الشعري. كان المكان ـ الوطن هو هاجسه، مجسدا بشكل رمزيّ في الغالب، أو مختصرا في مساحة ضيقة، تمتدّ من البحر إلى النهر، أو تتسع من المحيط إلى الخليج: ما حدث فيه وما يحدث، حتى يكاد يتحول إلى تاريخ، تروى فيه الوقائع من خلال شخصيات الوطن ورموزه: سلمى في «العرس» هي فلسطين المغتصبة المشطورة المحتلة، هي البلاد، وهي أم الزيتون، وأرض بني مازن، وهي كل ما حمله الشاعر في قلبه، وعبر عنه، حتى أنهك منه القلب.

ولأن الوطن هو الوطن، فإن التطلّع إلى حريته، وإلى الحرية فيه، هو النشيد: إن حرية الوطن هي ذاتها حرية المواطن. وإذا كان الشاعر تحرك مع التاريخ ـ مأساة الوطن في مسرحه، من «تشريقة بني مازن» الأولى، حتى الشتات الكامل، فهو لم ينس أن يرصد أعداء الوطن، أعداء الحرية، من التقاليد التي تحول دون انطلاقته، إلى الاستعمار الذي يكبّله، وإلى ذوي القربى الذين يتوزعون أشلاءه. ومن خلال هذه الصور بات شعار تسليم القضية إلى أصحابها مبررا: فالمفتاح لا يصحّ أن يجده إلا عودة، الذي يتناسخ جيلا بعد جيل، والبلاد لا تكون بلادا إلا إذا طلبت أهلها.

حتى يوصل مقولة الحرية الأساسية في فكره، توسل الشاعر بعديد من السبل المسرحية، في القول وفي الفعل المسرحي. ولأنّ اللغة هي لعبته الأصلية، فقد كانت من أبرز ما اختار، حين وظّف حسّه الشعري في مسرحه، دون أن ينزلق إلى المبادلة. وفي هذا التوجه استفاد الشاعر/الكاتب من اللعب على معاني الكلمات. ولعل مثلا واحدا، هو الأبلغ لديه، يمكن أن يشير: إن كلمة تمثيل، بكل المعاني التي تعنيها في المسرح وفي الحياة، شكلت أساسا دراميا في مسرحية «العرس»، كما شكل غيرها مواقف، بعضها أساسي، وبعضها الآخر عابر، في كل الأعمال الأخرى.

وبالرغم من حالة اليأس التي تنتاب الواقع في الأعمال جميعا، فإن باب الأمل لا يغلق قط، لأن شيئا من الثبات يظل حيا: فالمفتاح يظهر، وعودة لا يموت ولا يتحوّل، وسلمى لا تحمل من غير الرجل الذي تحب، والبلاد تستمر في طلب أهلها، والحجر لا يكون قنطارا إلا في مطرحه.

وإذا كانت الأسماء وسيلة دائمة للتعبير الرمزي لدى الكاتب، إلا أن الفعل هو الذي يقود أعماله معظم الوقت، برموز بعضها معروف، وبعضها الآخر يخص الكاتب، أو يميزه.

إن البشرى بولادة جديدة، كطريق رمزي لتواصل الأجيال في حمل قضية ما، رمز معروف، وهو يكاد يتكرّر في معظم أعمال الكاتب، ليشكّل وسيلة مقاومة مستمرة، لكن تغيّر طبيعة الحب مثلا، من الشعرية إلى الواقعية، ومن التخيّل إلى الفعل، ومن الحلم إلى السلوك، جاء تعبيرا رمزيا له خصوصيته، اتكأ عليه الكاتب غير مرة، فحمل في سياقه بلاغة سخية.

وفي السياق الرمزي، لا يمكن إهمال الإشارة إلى ما في طبيعة الوطن ومكوناته من رموز يصعب أن تغيب، تشكل الأرض المهددة أو المستباحة أو التي يحلم أصحابها باستعادتها، ركنا أساسيا في هذا الشأن، كما يشكله الزيتون، بقدرته على الخلود. كما لا يمكن إهمال الإشارة إلى توظيف الفولكلور الفلسطيني، لما يخلقه من تشويق في العروض، وكسر للرتابة، وتأثير أخرج الناس في مظاهرة ذات عرض.

وقد غلبت المقولات والمواقف والأفكار على طبيعة الأعمال المسرحية للشاعر، إلى الحد الذي كان يصعب فيه تحديد معظم شخصياته، ما جعله يعمد إلى شخصيات دون أسماء، مثل مشاهد، أو ممثل، أو صوت، أو فتاة، وهو ما لم تخل منه واحدة من مسرحياته.

التقيته مرة واحدة في عمّان، وأدركت أننا متعارفان جيّدا. كان يتشوق إلى العودة بعد غياب، ويحلم بأن البلاد ستجلب أهلها. رحل بعد ذلك بقليل، وقط قبل أن يتحول الحلم بقليل.

ماذا كان أبو الطيب الأحدث سيقول؟
وحسب المنايا، كما قال أبو الطيب الأقدم؟
علينا أن نعيد قراءة نصّه حتى نعرف!

قصة قصيرة

قبر واسع

عائشة عودة

استغلت روحي فرصة نومي. أرادت أن تغامر في الابتعاد عن الأرض قليلاً، ناشدة التحرر بعض الوقت من أشواك تغزها، تعلق بها كلما علقت على حاجز ثابت أو طيار. رأت أن السماء واسعة ويمكنها السباحة فيها لتغسل نفسها في النور الإلهي، قبل وصوله الأرض، وتعلّق خطايا البشر به.

رفت وانطلقت. لكنها سرعان ما اصطدمت بشيء غير مرئي سبب لها صدمة كهربائية. حين تماسكت من الصدمة، رأت أمامها حشداً من الأرواح الهاربة على شاكلتها وأمنيات زاهية وأدعية ذات ألوان خضراء وحمراء وسوداء وبيضاء، وقد خيم عليها الصمت وحُشرت معاً وضُربت حولها أسلاك مكهربة!. تأملت الموقف فرأت مقابل ذلك، ظلالاً معتمة، تصدر عنها أصوات ذات حروف غير مميزة المخارج. سيطر عليها حب الاستطلاع والاكتشاف! تقدمت قليلاً وهي تنظر بحذر شمالاً ويميناً. أرهفت السمع لما يصدر عن الظلال من أصوات. تأكدت أنها ذات اللغة التي كانت تسمع حراس السجن يتحدثونها! استنفرت كل حواسها وأصاخت السمع تلتقط الكلمات. فهمت أن دعاء معيناً قد التبس عليهم فهمه! فريق يرى ضرورة السماح له بالمرور، وآخرون يرون أن كل دعاء مهما كان هو متهم لأنه ربما يكون ملغزاً ما يجعل احتجازه أمراً ضرورياً! حين احتد الخلاف، قرر مسؤولهم استشارة أصحاب القرار الأعلى القائمين في الأسفل!

ابتسمت روحي وازدهت في نفسها، كونها كانت قادرة على فك أسرار تلك اللغة. كمنت في مكان قريب، وتابعت مجريات الأمور. فهمت أن اجتماعاً طارئاً سيعقد للتو لمجلس الحكومة المصغر، يتدارسون فيه أمر الدعاء ذي الإشكالية! ومن ثم، اتخاذ القرار المناسب، وإلى حين صدور القرار، راح من في الظلال يتبادلون النكات البذيئة عن الدعاء المحتجز.

لم يطل الوقت حين وصلت سيارة مراسم فخمة. نزل منها الحراس الخاصون وانحنوا أمام الدعاء تكريماً له كونه شخصية مرغوبة من قمة الهرم وقد أصبح ذو أهمية فائقة، وسيحل ضيفاً على مركز الحكومة المصغر!

لم تحدثني روحي عن مفاجأتها بتلك التحولات السريعة التي أذهلتها على كل الصعد، خاصة أنها تعرفت إلى شخصية الدعاء، الذي يشكل جزءاً من دعاء تكرره إذاعة صوت فلسطين بعد الآذان والذي يقول: «.. اللهم أعطنا قبراً واسعاً!» وكثيراً ما تسمعه في أشرطة الأدعية المنتشرة بكثرة في وسائل النقل العامة!

حال وصول الدعاء، عقد المجلس الوزاري المصغر مؤتمراً صحافياً. أُحضرت إليه كافة وسائل الإعلام، المحلية، والإقليمية، والعالمية. وأُجلس الدعاء إلى جانب أعضاء المجلس الوزاري وقد أُلبس بذلة رسمية، فصلت وخيطت خصيصاً له في أرقى دور الأزياء في الولايات المتحدة! وأمام ذاك الحشد من الإعلاميين ومصنّعي المزاج العام لساكني الكرة الأرضية، وبعد ديباجة مطولة، أجاد رئيس الحكومة الحديث فيها. فأسهب عن سموّ أخلاقهم، وعن قلوبهم الواسعة والرحيمة، واحترامهم للساكنين تحت مظلتهم، وتلمسهم لاحتياجاتهم ـ مشيراً بيده الى الدعاء الذي أجلسه بجانبه ـ ثم أعلن عن عزم حكومته، وتصميمها، (ولأسباب إنسانية خالصة)؛ على بناء أوسع قبر شهدته البشرية! ثم أشار الى بعض التفاصيل للمشروع بقوله: سيتسع هذا القبر لعدة ملايين من البشر، إضافة لآلاف من الحواجز الثابتة، وأضعافها من حواجز طيّارة! ما سيؤهلها للدخول في موسوعة «جنيس» العظيمة.

صرخ جمهور الإعلاميين انبهاراً: «وااو! ستكون فيه إمكانية للطيران؟!»، وتبع تلك الصرخة تصفيق حاد!

كان إنجاز الوعد بسرعة مبهرة، لدرجة أن الصحف امتلأت بمقالات الإشادة بعظمة الإنجاز الدّال على عبقرية فذّة. وتنافست شاشات الفضائيات بإجراء المقابلات المطولة لشخصيات ذلك الإنجاز! وقرر رئيس أعظم دولة في عصرنا رعاية الاحتفال، وكان إلى جانبه أمين عام المنظمة الدولية العظمى!

لقد شاهدت الاحتفال بعينيّ، وروحي كانت تسكن جسدي. كان الاحتفال ضخماً، تم الإعلان فيه عن فوز المجلس الحكومي المصغر، بدخوله التاريخ من أوسع باب لأوسع موسوعة وأكثرها شعبية وشهرة في التاريخ! هي موسوعة «جنيس» نظراً لإنجازه العظيم ببنائه أوسع قبر عرفته البشرية.

ملاحظة: بث الاحتفال بثاً مباشراً على كافة الشاشات العالمية.
تصفيق حاد!!

قبر أوسع

لم تتعظ روحي مما وجدته في ليلة سابقة أثناء محاولتها الرفرفة في السماء. غافلت وجودي النائم، وانطلقت كنسر ضاق المكوث على الأرض.

كادت لا تصدق نفسها وهي ترفرف بأجنحتها في سماء مضيئة واسعة. لكنها سرعان ما توقفت أمام ظاهرة قاتمة، تقفز من مكان الى آخر. بعد تدقيق النظر وارهاف السمع، توقعت أن يكون ذلك القاتم، حاجزا طيارا، وتذكرت صرخة الانبهار الذي أطلقها جمهور الاعلاميين حين سمعوا عن الحواجز الطيارة في مشروع أوسع قبر لصالح موسوعة غنيس، لاعتبارهم أن ذلك كان تعبيرا عن الطيران وسعة القبر.

طار الحاجز قليلا وحط بالقرب من روحي. وكعادتها، تجذبها المغامرة وحب الاستطلاع. طوت أجنحتها، وراحت تسير على رؤوس أصابعها، مقتربة ما تستطيع من الحاجز، تستطلع أخباره!.

«لماذا الكيل بمكيالين؟ في مرة سابقة، حوّلته حكومتنا الى ضيف شرف، وبسببه حصلت على أعظم شرف حصلنا عليه، فلماذا تعتقلونه اليوم وتعذبونه؟

انبهرت روحي بالذي سمعته. فركت كفوفها فرحا، وكادت تصفق وتهتف لولا خوفها من الاحتجاز وابقائها عالقة هناك لزمن لا يعرفه الا الله. نبتت في قلبها أحلام سلام وردية وقالت: ها هي ضمائر مواطني دولة الحراس قد بدأت تستيقظ. وبجهد جهيد، سيطرت على تلك الانفعالات وراحت ترهف السمع لما يدور من نقاشات حادة.

رد حارس يبدو أنه تعلم كيف يكون ذا رأس جد حامٍ:
«شيكت! ألم تسمعه يردد «.. وسّع لنا قبرنا»؟

لم يفهم الحارس المعترض الفرق بين الدعاءين طالما يدور الطلب حول سعة القبر.

لكن المسؤول الذي كان يجلد الدعاء وهو معلق في وضعية الفروج، صرخ موبخا الحارس: «ألا تعرف أيها الحمار أنه كلما اتسع قبرهم تقزّم وجودنا؟!»

أخفض الحارس المحتج رأسه خجلا، ذلك أن الأمر يتعلق بوجودهم. أخذ نفسا ليؤكد ثقته بنفسه، وتقدم من المسؤول وطلب مشاركته في جَلْد هذا الذي يريد تقزيم وجودهم، ثم اقترح سلخ جلِده عنه، وتمزيقه إلى قطع غاية في الصغر. ثم يقومان بتوزيعها على كامل مساحة القبر الواسع كله، فربما يدخلان هما لا غيرهما، موسوعة «غنيس» العظيمة!

فرقع الضابط ضحكة رافقت فرقعة السوط على جلد المحتجز، فانفجر الدم من جسم الضحية كنافورة قوية راحت ترش المحيط بدمها الأحمر القاني لدرجة أعمت الأبصار وأثارت موجة من الصراخ ملأ عباب السماء.

حين عادت روحي متسللة الى جسدي، لم تستطع اخفاء أمر مغامرتها في تلك الليلة، ذلك أن بعضا من الدماء قد أصابها

نقطة ضوء

الحرب السادسة (٤)

إذا لم يكن السبب فماذا يكون..!!

حسن خضر

تناولنا في الحلقة الثالثة من هذه السلسلة، التي تستهدف معالجة بعض جوانب الحرب الأخيرة على الجبهة اللبنانية، حقيقة أن الزمن الرديء ينجب ممانعة رديئة، وكان المثلان القطري والسوري ـ الأوّل بكل ما ينطوي عليه من كاريكاتورية، والثاني بما فيه من عناصر تراجيدية ـ من أبرز النماذج في هذا الصدد.

أما حلقة اليوم فهي محاولة للمقارنة بين السلوك الإعلامي والعملياتي لحزب الله من ناحية، والجماعات المسلحة الفلسطينية من ناحية ثانية. وأوّل ما يرد إلى الذهن في سياق كهذا حقيقة أن الفرق في سلوك الجانبين يبدو واضحاً وفادحاً إلى حد يستعصي على الفهم.

فعلى امتداد أسابيع من المجابهة المحتدمة في الليل والنهار، لم يظهر مقاتل واحد من مقاتلي حزب الله على شاشات الفضائيات الجائعة إلى المشهدية والسبق الصحفي. ومن الصعب، هنا، تبرير عدم الظهور برغبة خاصة من جانب المقاتلين في الابتعاد عن أعين الصحافيين، وكاميراتهم، فالأرجح أن المقاتلين تلقوا تعليمات صارمة بعدم الظهور أمام شاشات التلفزيون، والأرجح، أيضا، أن قيادة الحزب اتخذت تدابير كافية للحيلولة دون انتهاك هذا الموقف من جانب المقاتلين والصحافيين على حد سواء.

وبقدر ما يبدو الابتعاد عن المشهدية فصيحا وصريحا في الحالة اللبنانية يبدو الحرص عليها، والإفراط فيها في الحالة الفلسطينية فصيحا وصريحا إلى حد يتاخم حد الفضيحة. فظهور المسلحين الفلسطينيين على شاشات التلفزيون بمناسبة وغير مناسبة، ووضع الأقنعة على الوجوه، والاستعراض أمام الكاميرات في الجنازات، والمظاهرات، يبدو أقرب إلى مسرحة للواقع منه إلى أي شيء آخر. وربما يتاخم الأمر في مناسبات بعينها حد المأساة عندما يظهر أشخاص وقد حملوا على أكتافهم نماذج وهمية لأسلحة لا يملكها الفلسطينيون في الواقع.

وما يستحق الملاحظة في هذا الشأن أن سلوك المقاتلين في الحالة اللبنانية ينسجم مع أوّل، وأهم، وأبسط مبادئ حرب العصابات. وهي في الواقع ـ وكما جاء في أدبياتها ـ حرب أشباح، يذوب مقاتلوها بين السكّان، يظهر الواحد منهم، فجأة، ويختفي من حيث لا ينتظره، أو يتوقعه أحد. وقد انتهك الفلسطينيون هذا المبدأ بطريقة تدعو إلى الذعر، رغم حقيقة أنهم يحتاجون إلى الابتعاد عن المشهدية أكثر من مقاتلي حزب الله بألف مرّة، بفضل الوجود الكثيف لعيون الإسرائيليين وجواسيسهم في المناطق الفلسطينية.

وما يستحق الملاحظة، أيضا، أن الأداء العالي لمقاتلي حزب الله كان يبرر المشهدية، بعد نجاحهم في صد الإسرائيليين في أكثر من معركة من معارك المواجهة في الجنوب، بينما لا يوجد في رصيد الفلسطينيين ما يبرر هذه المشهدية، بحكم الأداء الفقير، الذي وسم سلوكهم في الميدان، والتناقض المفزع بين كلامهم وأفعالهم، رغم أن أحداً في العالم لم ينتظر منهم أن يجترحوا المعجزات، بفضل الخلل الهائل في موازين القوى، وضعف تسليحهم وتدريبهم.

وفي هذه النقطة بالذات مفارقة مروّعة بين الحالتين اللبنانية والفلسطينية. ففي كلامه عن التصوّر الإجمالي للحرب، وضع زعيم حزب الله، تصوّرات واقعية أقرت بإمكانية نجاح الإسرائيليين في دخول مناطق في الجنوب والسيطرة عليها، وأقرت بالقدرات المحدودة لمقاتلي الحزب مقارنة بالآلة العسكرية الإسرائيلية. والملاحظ في هذا الشأن لغة نصر الله شبه العلمانية، المتواضعة، الفقيرة بلاغياً، الخالية من الشعارات، والعنتريات والمطلقات. وهي أشياء مقلوبة على رأسها لدى المسلحين الفلسطينيين والناطقين باسمهم: لغة أصولية، بلاغة فارغة، شعارات، وعنتريات، وإفراط في كلام الدم والشهادة.

أخيرا، تكلّم زعيم حزب الله، بعد انتهاء الحرب، عن عدم توقعه لردة الفعل الإسرائيلية، التي ألحقت دماراً هائلاً بالبنية التحتية في لبنان. فلو توّقع حجم الرد لما أقدم على خطف الجنديين. وفي اعتراف كهذا ما ينم عن نزاهة نادرة المثال في العالم العربي. كان يستطيع التغطية على الدمار بالكلام عن الدماء، والوفاء، والشهداء، والقضية المقدسة. لكنه لم يفعل. وفي الحالة الفلسطينية يبدو العثور على نزاهة من هذا الطراز مثل البحث عن إبرة في ألف كومة من القش، رغم أن الكوارث التي ألحقتها أعمال غير محسوبة، وغير مبررة، بالشعب الفلسطيني وقضيته، تزيد في الكم والكيف عن حجم الدمار الذي لحق بالبنية التحتية في لبنان.

وإذا ما وضعنا النزاهة جانباً فإن المسألة التي تستحق النظر في هذا الشأن هي إمكانية الرقابة الشعبية على سلوك الجماعات الراديكالية، خاصة تلك التي تتبنى قضايا كبرى، وتقاتل من أجلها. القتال لا يمنح المقاتلين حصانة خاصة، إذا ارتكبوا الأخطاء، ولا يرفعهم فوق القانون، أو يحميهم من النقد. وقد تمكن اللبنانيون بفضل تعدديتهم السياسية والحزبية والمذهبية والطائفية من التعبير عن وجهات نظر مختلفة تجاه الحرب، والحزب الذي خاضها.

لا يملك الفلسطينيون هذا القدر من التعددية، لكن ذلك لا يعفيهم من ضرورة نقد السلاح، ونقد حامليه. غالبا ما يحضر النقد تحت غطاء كلمات من نوع الفوضى، والفلتان، وفوضى السلاح. لكن الفوضى والفلتان وفوضى السلاح مجرد أعراض جانبية تقوم مقام النتيجة لا السبب. والسبب ـ إذا جاء الكلام على طريقة العرب، أي إذا قل ودل ـ أن من يخوض حرباً لا يستطيع تعريفها، ولا تحديد أدواتها، سينتهي إلى ما انتهينا إليه من فشل يصعب إنكاره. وإذا لم يكن الفشل العسكري والسياسي سبب الفوضى، والفلتان، وفوضى السياسة والسلاح، فماذا يكون؟

hkhadr@palnet.com